الأسرة المعاصرة وتحديات القيم الوضعية الحداثية

نموذج النظرية النسوية ونظرية مالتوس

إعداد

د. محمد بنتاجة

باحث في فلسفة الدين وحوار الأديان والحضارات - مراكش

ملخص البحث

يجادل البحث في فرضية التغيير القيمي التي تعاني منه الأسرة المعاصرة عموما والأسرة المسلمة على الخصوص. ونزعم ان هذه التحولات في قيم التأسر الانساني المعاصر جاء نتيجة لعولمة النموذج الغربي الحداثي وفرضه على المجتمعات الانسانية الأخر، بما يمتلكه النظام العالمي الجديد من أدوات وامكانيات مهولة.

إن المشكلة في تغير قيم الأسرة الغربية بعد مرحلة العلمنة الشاملة التي طالتها زمن الحداثة وبعد الحداثة. وهذا يعني إعادة النظر في النماذج الأسرية الكلاسيكية ككل. وبالأخص النموذج الأسري التي كان يستمد قدسيته وقوته من الدين ذي الصبغة النهائية المعصومة. وقد أنتج العقل الغربي نظريات عدة ساهمت في تعميق مشكلاته الاجتماعية والأسرية وتعقيد واقعها المعاصر. ولعل نظرية مالثوس والنظرية النسوية من أهم هذه النظريات التي غيرت مفهوم الانسان الغربي للأسرة ومكوناتها وبالتالي توسيع بؤرة التأثير لتشمل كل المجتمعات الانسانية الأخرى بما فيها مجتمعاتنا العربية الاسلامية.

لقد ناقشت نظرية مالتوس الوجود البراجماتي للتكاثر الانساني في حقبة القرن التاسع عشر -والتي تستمر في سياسة الغرب الاجتماعية حتى الآن-. وأصرت على مجموعة من الاجراءات اللاإنسانية من أجل الابقاء على نمط معين من الحياة ولو على حساب حقيقة الحياة الانسانية في كينونتها. فلا مجال من أجل بقاء الانسان الغربي بمستوى معيشي مرتفع من تحجيم الوجود الانساني على الأرض وترشيد استهلاك خيرات الأرض عن طريق قتل العنصر الانساني غير الفعال (السود والمرضى والمعاقين والعرب...) وتدمير قدراته الانجابية وتحطيم مشاريعه الأسرية باعتبارها وكرا من أوكار انتاج العناصر غير المنتجة من الجنس البشري (الهابط). وهي تعد النواة الأم للعنصرية النازية والفاشية التي أهلكت العالم والحرث والنسل. وهي انعكاس للأنانية الغربية تجاه شعوب العالم.

كما كان لتطور نظرية الحقوق بعد الحرب العالمية الثانية دورا أساسيا في ازدياد الوعي بحقوق المرأة الغربية، ما أنتج تيارا أيديولوجيا جديدا الا وهو النظرية النسوية. وفيها يجادل أصحاب هذا التيار من النسويات بضرورة تحرير الأسرة من قيود القيم الدينية نحو قيم جديدة تكون المرأة فيها قطب الرحى والمركز التي يدور الرجل في فلكه. وبذلك وقع النسويات في فخ العولمة حيث تحولن الى أداة لتشيء الأنثى وتسليع الجسد الأنثوي باعتباره لوحة إشهارية للشركات المتعددة الجنسيات. فكان لهذا انعكاسا على واقع الأسرة الغربية من حيث المشروع الأسري نتيجة حس

التعالي عن الرجل الذي بات يسري في عروق النسويات وتفشي الشعور بعدم الحاجة له. ولا حتى في الانجاب حيث يتم التخصيب بشكل صناعي دون حاجة ميكانيكية مباشرة للذكر.

صحيح، كون الأسرة في العالم الاسلامي لم تزل متشبثة بقيمها الأصيلة بمختلف تكويناتها الدينية (مسلمة كانت أو يهودية أو مسيحية) لكنها مع ذلك تقاوم تيارا جارفا يقوم على اجتثاث الثوابت الأسرية لحساب ثوابت قيمية جديدة أكثر انفصالا عن الذات وأيضا أكثر التصاقا بالنموذج الأسري الغربي واختياراته الايديولوجية والاجتماعية التي اكتسبها نتيجة تدافعاته التاريخية الخاصة جدااا وتجربته مع الكنسية والتراث الاغريقي الوثني. ويبقى السؤال إلى متى ستصمد الأسرة الدينية عموما والأسرة الاسلامية على الخصوص أمام تلكم التحولات المتسارعة؟ وهل لدينا استراتيجية لتدعيم البناء الأسري الاسلامي وقيمه القرآنية المتسامحة؟ ...الخ، والله أعلم

مقدمة

يمر العالم اليوم بمغيرات كبيرة شملت معظم مجالات الحياة. ولا تقتصر التحولات على التقدم التكنولوجي الذي ننظر اليه بإعجاب وتقدير، لما وصلت اليه التكنولوجيا الغربية الحديثة من تقدم وتطور كبيرين، بل إن التقدم التكنولوجي الكبير أدى إلى تغيير في جميع مجالات الحياة ومرافقها بما فيها الجوانب ذات البعد المعنوي كالأخلاق والقيم.

ولم تسلم الأسرة المعاصرة من آثار هذه التغيرات الشاملة التي غزت العالم شرقا وغربا، خصوصا وأن النظام العالمي الجديد آثر إلا أن يعولم نموذجه الغربي الكامن ويفرضه بالقوة والسلاح تارة وتارة بتصدير الوهم تحت مغلفات سكرية –على حد تعبير الدكتورة باربارا براون- من حرية وانفتاحيه وإنسانية، وماهي إلا أنماط جديدة من التبعية الثقافية خدمة للمصالح الغربية، التي فككت الأسرة في مجالها التداولي الخاص وشوهت طبيعتها وأخرجتها عن أدوارها الحقيقية الكامنة في إسعاد المجتمع، وتكوين أجيال صالحة مصلحة تخدم نفسها وتنمي وطنها.

إن الوعي بطبيعة الأخطار التي تحيط بالنماذج الكلاسيكية للأسرة عموما والنموذج الاسلامي على الخصوص لجدير بأن يقتفى أثره وأن تتضح معالمه. لأن فهمنا لطبيعة التحولات القيمية على مستوى بنيات الأسرة المعاصرة خصوصا في إطار النموذج الغربي المهيمن على العالم والمدعوم بترسانة هائلة من الامكانيات لحري أن يجنبنا تبعات قد لا نكون قادرين على السيطرة عليها في المستقبل. خصوصا وأن هذه التبعات وإن كانت ذات طبيعة انسانية واجتماعية أفقية، فإنها ونظرا لحساسيتها ستؤدي إلى شلل كلي في المنظومة الحياتية للمجتمعات المعاصرة، خصوصا تلكم المجتمعات المحافظة على النماذج الأسرية ذات المرجعية الدينية كما هو الحال بالنسبة للمجتمعات الاسلامية.

وسنتدبر في هذا البحث موضوعين أساسيين أحدهما مرتبط بتفكيكية القيم الحداثية على مستوى القيم وأثره في تفكيك الأسرة وثانيهما مرتبط بتحليل اسباب ظهور الأنماط الجديدة للأسرة في الغرب وكيف تسعى دوائر متعددة إلى نقل هذه العدوى إلى مجتمعاتنا الإسلامية وكيف تعاملت المجتمعات العربية مع محاولات الاستنبات هذه؟

ولا يفوتنا التوضيح أننا وإن كنا لا تستثني نموذج أسري عن غيره من حيث التعرض لضغوطات القيم الوضعية الأسرية الحداثية، فإننا مع هذه الشمولية ننطلق من النموذج الأسري الاسلامي، لكونه النموذج الأسري الأقرب إلينا اعتقادا وممارسة، وهو خير بديل وممثل للنماذج الكلاسيكية الأسرية التي تسود باقي المناطق الجغرافية في العالم.

كما سنحصر بحول الله تعالى أثر التفكيكية القيمية الغربية على الأسرة في نظريتين: أولاهما هي النظرية النسوية Le fémminisme ونظرية مالتوس، وسنبين أثرهما على الأسرة في مجال التداولي الاجتماعي الغربي. وكيف تم استيراده النماذج من محيطها التاريخي والجغرافي والانساني التي نبتت فيه إلى بيئتنا العربية الاسلامية دون أن

يتم تبيئتها ولا عرضها على المرجعية الفكرية التي تؤطر العقل المسلم في مجتمعاتنا. ما يضع اختياراتنا الأسرية الاسلامية والدينية على محك المنافسة الشرسة دون أن يتم التخطيط للتحكم في توجيه التحولات القيمية الأسرية وتجنب المخاطر المتوقعة والتهيئ لها بما يناسب من الحلول والامكانات الضرورية. والله تعالى أعلم وأحكم

المبحث الأول: النظرية النسوية والأسرة

النظرية النسوية، هي مشروع غربي، تبنته بعض الجهات على خافية الدفاع على حقوق المرأة، وحقها في الاستقلالية الشاملة والتامة والمساواة مع الرجل. ويعرفها معجم اللغة لعربية المعاصرة بأنها(حركة فكريّة مُهتمَّة بحقوق المرأة، تنادي بتحسين وضعها وتأكيد دورها في المجتمع وتشجيعها على الإبداع)[1]، ولكن هذا التعريف لا يطلعنا على الخلفية الفكرية لهذه الحركة والتي تعد وكما سيأتي من نتاج مدرسة ما بعد الحداثة.

وجاء في ورقة عمل قدمت إلى المؤتمر التاسع للندوة العالمية للشباب الإسلامي عام 1423هـ بعنوان: "الحركة النسوية الغربية وآثارها في ظل الانفتاح العالمي" الآتي: (الحركة النسوية الغربية المعاصرة Feminism هي تنظيم غربي انطلق من الولايات المتحدة الأمريكية، ويتخذ منها مركزًا له، وتعتبر هذه الحركة امتدادًا للحركات النسوية الغربية التي ظهرت في أمريكا وبريطانيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والتي ناضلت في سبيل الحصول على الحقوق الإنسانية للمرأة؛ حيث كانت المرأة في تلك البلاد محرومةً من التصرف في مالها، ولا تُوفر لها فرص التعليم والعمل، وتمحورت مطالبهن حول الحقوق الفردية للمرأة في أن تُعاملَ على أساس مساوٍ للرجل في إنسانيته)، وقد كانت تمت عوامل موضوعية داخل المجتمع الغربي لقيام مثل هذه الحركة خصوصا وأن الأسرة في الغرب تعتبر (من أهم المؤسسات التي تضررت بعد الثورة الصناعية في مطلع القرن الماضي. ومن المعروف أن هذه الثورة كان لها السبق في إخراج المرأة من بيتها، وإقناعها بأهمية دورها الإنتاجي في العمل وحاجة المصانع إلى الكثير من الأيدي العاملة، وذهاب الرجال إلى الحروب وموتهم فيها بأعداد كبيرة، وخاصة أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى(1914-1918م))[2]. ومع تقدم الوقت وبعد حصول هذه الحركة على المطالب السابقة، رفعت شعار التماثل الكامل بين الرجال والنساء في جميع الجوانب بما فيها التشريعية، مما ينبئ على التحول المنهجي للحركة من المطالبة الاجتماعية إلى التكوين الأيديولوجي ومحاولة الانعتاق بالنظرية الجديدة للنسوية الكونية، تقول نيما ناغيبي-أستاذة بجامعة وينيبيغ بالولايات المتحدة الأمريكية-(...إلا أنه عادة ما يتم النظر إلى "الموجة الثانية" من النسوية التي تعود إلى السبعينات من القرن العشرين باعتبارها فترة نشر المفاهيم النسوية جماهيريا وبالتالي تأسي الدراسات النسائية في المؤسسة الأكاديمية بالولايات المتحدة الأمريكية)[3].

---

[1]- أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3/ص:2207، ط1، 2008، عالم الكتب.

[2]- لمى قاطرجي، القيم الغربية واثرها على كيان الأسرة، ص:120-121، مقال من التقرير السنوي الاستراتيجي الثامن، 1434هـ، لمجلة البيان السعودية في موضوع: الأمة في معركة القيم والمفاهيم، بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة للعام 2011..

[3]- نيما ناغيبي، الدراسات النسائية/الجندر، ص:581، ترجمة هالة كمال، موسوعة النساء والثقافات الإسلامية، دار بريل-بوسطن، 2003، تمت الترجمة بتعاون مع مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، 2006.

سُمِّيت الحركة النسوية في مرحلتها الأولى بـ "Equity Feminism"؛ أي: نسوية المساواة"، أما المرحلة الثانية للحركة النسوية، فتسمى بـ "Feminism Gender"؛ أي: نسوية الجندر، أو نسوية النوع، بدأت هذه الحركة الأخيرة في عام 1960م وأخذت منحنًى مختلفًا في أيديولوجياتها ومطالبها، وأصبحت تحمل أيديولوجيةً شاذةً وغريبة.[4]

لقد حاربت الحركة النسوية كل مظاهر "الذكورية" في المجتمع الغربي، ونادت بالمساواة المطلقة مع الرجل، دُفعت إلى هذا الموقف الايديولوجي دفعا، عن طريق الدعم الواسع التي تلقته أخرجها عن طبيعتها الاجتماعية الصرفة، لتدخل في مرحلة تعلم الصراع مع الرجل في سبيل المصالح الخاصة، بهدف تحطيم الأسرة، حيث يأتي في صورة **تمركز حاد حول الأنثى** الشيء الذي أحدث ضبابية تجاه مفهوم آخر وهو "حقوق المرأة" وبينهما تباعدا كبيرا. يقول ألكسيس كاريل(أصبح الرجل والمرأة على السواء، ومن الصعب أن نحدد جنسهما: لتداخل وظائفهما، وبسبب مساواة لم تحترم الإختلاف الجوهري الذي أقره الرب في خلقه لكليهما)[5]. وهذا في تصورنا رد فعل طبيعي نظرا للاختيارات المادية والأيديولوجية للمجتمع الغربي المثقلة بالفلسفات العدمية كالداروينية التي تؤمن بمبدإ الصراع من أجل البقاء وأن البقاء للأصلح، فكان من الطبيعي للحركة الأنثوية تبني مفاهيم عصرها تجاه شريكها الأبدي ومحاولة انتزاع أسباب القوة من بين يديه طالما أن الصراع هو قانون الحياة. ويوضح الدكتور طه عبد الرحمن هذه الفكرة قائلا أن هذه التحولات داخل الأسرة المعاصرة ترجع (إلى انتقال علاقة التصارع-أو الصراع- من مستوى الطبقات الاجتماعية إلى مستوى الأفراد داخل الأسرة، فقد غدت هذه الخلية الاجتماعية الأولى حقا مسرحا لصراعات متعددة منها "الصراع بن الزوج والزوجة" و"الصراع بين الأب وابنه" و "الصراع بين الذكر والأنثى" و"الصراع بين الأم وابنتها" و"الصراع بين الذكر و"الأنثى" و"الصراع بين الجيل والجيل")[6] ولا نغفل أيضا عن دور الفرويدية في تكريس الدونية تجاه القيم المتجاوزة للمادة، (وذهب فرويد اليهودي إلى أن نشوء الأخلاق، إنما كان من الكبت الجنسي/ وهو خطر على الكيان النفسي والعصبي، وقد توصل بذلك إلى لزوم تحطيم التمسك بالأخلاق ولزوم إشاعة المرأة، وعدم التقيد بأي عرف يمنع من ذلك...إن الدعوة إلى تحطيم الأخلاق إنما هي دعوة إلى التخلف والانحطاط، وتهديم ما بناه الإنسان منذ اقدم عصوره من قواعد للآداب والأخلاق)[7].

لقد ساهمت الحركة النسوية في تقويض الأسرة الغربية، عن طريق تعطيل وظائف المرأة الطبيعية داخل المجتمع، وإدخالها في حالة اغتراب نتيجة ازدواجية دورها بين الأسرة وفرص عملها التي أنتجها العصر الحديث، ف (اجتزأت المرأة من محيطها الاجتماعي والأسري لتتخذ منها وحدة اجتماعية قائمة تروم تحريرها، أن أخطأت السبيل فعوض أن تحرر المرأة من الاستبداد السياسي وما نتج عنه من استبداد ذكوري وترجع بها إلى أصل أنوثتها بما هي مصدر لقيم الجمال والمسؤولية وبناء الأجيال، عوض هذا أفقدتها ما بقي من أنوثتها لتتلبس بشخصية

---

[4]– أحمد إبراهيم خضر، خمس شهادات من الغرب وإفريقيا على تدمير الحركة النسوية للزواج والأسرة، ص:2، عن الموقع الر سمي للدكتور احمد إبراهيم خضر على الرابط التالي:

/http://www.alukah.net/Web/khedr/0/54464

[5]–ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص:240، ترجمة: عادل شفيق، سلسلة كتب جائزة نوبل، الدار القومية للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

[6]–طه عبد الحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص:110.

[7]–باقر شريف القرشي، نظام الأسرة في الإسلام، ص:29، ط1، 1988، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.

ذكورية لم تبق من أنوثتها إلا أطلالا. أما على مستوى الأسرة فقد حولتها من منبع للحب والعطف وناظم للعلاقات العائلة إلى كائن أناني لا يستحضر إلا طموحه الشخصي واستقلاليته، وتحرره من كل التزام. بل أصبحت المرأة تتنكر لفطرتها " لتنظر إلى الزواج على أنه قيد يعوقها! وإلى الإنجاب على أنه عدو يفسد جمالها ورشاقتها، وإلى البيت والانشغال به على أنه إهدار لطاقتها بل إهدار لكرامتها! وبعد أن كانت – كما هو مركوز في فطرتها – تفرح بصيحة الطفل لأنها تحقيق لرسالتها وإثبات لأنوثتها المتمثلة في الاستعداد للحمل والإنجاب، صارت تمقت صيحة الطفل، وتكره البيت، وحتى إن تزوجت تستخدم موانع الحمل لتحافظ على رشاقتها)[8]. إن هذه المقاربة قد جعلت المحاسبة والمكايسة أساس العلاقة الأسرية بدل المودة والإيثار، فعوض أن يتجه نظر الزوج الرجل، والزوج المرأة، والطفل إلى واجباتهم تجاه بعضهم البعض، تركَّز نظرهم على حقوقهم في ذمة الآخر، والتي لن يبلغ أحدهم ببشريته درجة الكمال في أدائها لا سيما في ظل النزعة المصلحية. كما أن هذا التصور الأحادي النظرة يضعف العلاقات ويزيدها وَهْنا، فيؤول الأمر إما إلى انحلال الأسرة وتشتت شملها، أو استمرارها على هون فاقدة لمقصد السكن والاستقرار، ومُعَطَّلة عن أداء دورها الحضاري.

لكن سرعان ما انتقل الفكر الأنثوي إلى العالم الإسلامي عن طريق الانفتاح الثقافي. وتعتبر مصر أول الدول الإسلامية تأثرا بهذه الأيديولوجيا الغربية، حيث دعمت تأسيس الاتحاد النسائي المصري عام 1923م بدعم من الدوائر الغربية، فحضرت رئيسة الاتحاد الدولي للحركة الأنثوية آنذاك(د. ريد) وإقامة المؤتمر النسائي عام 1944م والذي تضمن توصيات بتقييد الأحكام الشرعية المتعلقة بالطلاق وتعدد الزوجات، والحرية الفردية، والمطالبة بحذف نون النسوة باعتبارها تمييز ضد المرأة والاختلاط في التعليم ومحاربة الحجاب ...وقد كانت هدى شعراوي رائدة الحركة النسوية في مصر والعالم الإسلامي، و(**من المفارقة انه بالرغم من أن رائدات الحركة النسائية في بداية القرن العشرين مثل هدى شعراوي (1879-1947) ناضلن من أجل نزع الحجاب**، فإننا نسمع اليوم عن نقاشات حامية بين المجتمعات والحكومات في بعض الدول الغربية !! حول ما إذا كان يجب السماح لفتيات المدارس بارتداء الحجاب)[9]، وهذه المفارقة تعكس مدى الممانعة الاجتماعية حتى في الدول الغربية تجاه الحجاب باعتباره حرية شخصية لا يجوز للدولة اقتحام وفرض نموذج معين على الأفراد، رغم أننا في العالم الإسلامي لم نتمكن بعد من بلورة ممانعة واعية وحقيقية تجاه الأفكار الدخيلة للحركة الأنثوية العربية. وتضيف نيما ناغيبي موضحة استراتيجية الأنثوية تجاه المرأة المسلم(إن خطاب "النسوية التبشيرية" لايزال مؤثرا في حملات النساء الغربيات من أجل "إنقاذ" النساء في البلدان الإسلامية ولتحريرهن من سجنهن المحمول أي الحجاب الإسلامي. **إن النزعة النسوية الغربية الدافعة إلى إنقاذ النساء في البلدان المسلمات من عقيدتهن الدّينية وميلها إلى تصوير الممارسات الإسلامية باعتبارها غير متماشية مع النسوية** أدى مرات إلى عرقلة إمكانية قيام أية تحالفات نسوية عبر الثقافات)[10] يمكننا تبصر أسس هذه النسوية العربية واثرها السلبي على الأسرة، في سير هذه الأخيرة نحو خلق

---

[8]– محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص:75، دار الشروق، الطبعة التاسعة، 2001.

[9]–نوار الحسن غولي، هل النساء العربيات معنيات بالحركة النسوية؟ ص:3، ترجمة: منذر محمود محمد، دون معلومات.

[10]– نيما ناغيبي، الدراسات النسائية/الجندر، ص:581.

الأزمة الاجتماعية في الأسرة المعاصرة كما وقع لدى مثيلاتها في الغرب، وذلك عن طريق تحطيم نموذج القيم الإسلامية والأخلاقية لدى المرأة المسلمة باعتبارها ركيزة أساسية من ركائز الأسرة العربية، وباعتبارها أيضا المدرسة التي يتخرج منها الأجيال التي ستحمل زمام المبادرة في المستقبل.

إنها لعبة المؤامرة بامتياز تجاه روح المجتمع المسلم، والذي يراد منه أن يسير بأجيال مستلبة وتابعة للإمبراطورية الغربية وتحت إمرتها. لقد كان من الضروري أن تلعب النسوية دورها في خدمة المشروع الإمبريالي الحديث والذي تقليديا مجالا حكرا على الرجل، فالأحداث التي (مكنت النساء الغربيات في القرن التاسع عشر من التأكيد على أهمية مشاركتهن الكاملة في المشروع الاستعماري الكولونيالي الذي كان تقليديا مجالا حكرا على الرجال. وعن طريق استخدام جنسهن-أي كونهن نساء- كاستراتيجية لوضعهن الفريد، زعمت النساء الغربيات أنهن بخلاف الرجال سيتمتعن بالدخول إلى أماكن النساء في الشرق، وبالتالي التعرف على أمهات الأمم والأعراق الشرقية. ثم حملت النساء الغربيات على أكتافهن "عبء المرأة البيضاء" الخاص بهن وذلك طبقا للتعبير اي استخدمته أنطوانيت بيرتون، وذلك بمحاولتهن إحضار نور المسيح إلى النساء في العالم الإسلامي اللاتي اعتبرهن خاضعات لطغيان الإسلام)[11].

الإسلام بحسب منطوق ومفهوم آياته القرآنية ليس ضد المبادرة الفردية للمرأة، بل على العكس من ذلك، فقد أشرك إسلام المرأة في القضايا المصيرية للأمة بل وساهمت المرأة في تشريع الكثير من الأحكام. وإن نظرة على فهرس القرآن الكريم والذي نعده كمسلمين أقدس كتاب في الكون، لينبهر المرء بالحضور المهم للمرأة سواء على مستوى عناوين السور أو مواضيعها، بل اطلق الإسلام على ثالث سورة في القرآن الكريم باسم "سورة النساء' قبل أن يسمى أي سورة أخرى باسم ذي دلالة ذكورية، كما سمى سورة "مريم" والتي تعد تاريخا لعظمة السيدة مريم بنت عمران أم سيدنا عيسى المسيح عليه السلام . ليس القصد تبيان مكانة المرأة في التشريع القرآني، فليس هذه الورقة موضوعا لذلك، ولكن مرادنا هو التأكيد على براءة القرين من كل ما ألصق به من أعراف وعادات تحمل دلالات مباشرة أو غير مباشر ضد كرامة المرأة وحقوقها المشروعة. وإن كان واقع المرأة المسلمة في المجتمعات الإسلامية الحديثة والمعاصرة سيئا فإنه ليس بنفس السوء التي تسوقه بعض الجهات لأغراض غير نزيهة عموما. لأن تقدير مصالح الفرد تقتضي العلم الشامل بالحقائق وهذا محال في حق الإنسان، وهو واجب في حق الله تعالى علام الغيوب، واستقامة المرأة على شرع الله تعالى لا يحول بينها وبين إبداع المجد والتميز والاستقلالية المادية والمعنوية. والحجاب كمثال على ذلك، والذي طالما وضع موضع جدل بين الإسلام والعلمانية، لم يكن يوما يشكل خطرا على المرأة وكيانها الخاص. بل والمرأة المسلمة المعاصرة اثبتت وبشكل عملي على إمكانية الجمع بين الحجاب باعتباره رمز الإسلام الأنثوية وعلامة من علامات العفة والخصوصية الإسلامية وبين تحقيق الذات وتجسيد الأحلام المشروعة على أرض الواقع. وها نحن نرى المرأة المسلمة بحجابها وعفتها وقيمها الأصيلة وهي تمارس دورها الاجتماعي والوطني إلى جانب أخيها الرجل وكلٌّ من موقعه. إن ما تريده التيارات النسوية العلمانية من خلال محاربة الحجاب انتزاع كل مظاهر ورموز الدّين من واقع المرأة المسلمة، وربطها ببدائل غربية فاشلة ولا إنسانية، وتحريرها من كل قيد أخلاقي

[11] – المرجع السابق.

قد يثبتها في مؤسستها الأسرية التي نشأت فيها وتميل إليها فطرتها، ومن خلال ذلك الحيلولة دون رجوع المسلمة إلى كيانها الطبيعي في التنشئة الاجتماعية للجيل المسلم النافع، وإغراقها في جملة من الملاهي لتصير كعديلتها الغربية سلعة تتلقفها الشركات الكبرى، وتبقى رهن إشارة الذي يدفع أكثر.

كما فكّك الغرب كيانه الأسري بتحرير الممارسة النسوية من الأخلاق والقيم، وفتحها على المادة واللذة والحرية الفردانية المطلقة، فها هو يتجه إلى صرح آخر من صروح الأسرة، ألا وهو إنجاب الأطفال وتربيتهم، وكيف سيتم النظر إلى عملية الإنجاب والخصوبة الطبيعية للإنسان بمنظور مادي صرف؟ وماهي آثار ذلك على الأسرة الغربية؟ ثم أثره بالتبعية على الأسرة المسلم في العالم الإسلامي؟ وهذا ما سنناقشه في المبحث الثاني من خلال تبصر نظرية مؤسسة للأيديولوجيا الغربية ألا وهي نظرية مالتوس.

المبحث الثاني: نظرية مالتوس

نسبت نظرية مالتوس إلى الاقتصادي والرياضي الإنجليزي توماس مالتوس(14فبراير 1766-23 دجنبر 1834م). وعرفت هذه النظرية بنظرية نمو السكان في علاقتها مع التنمية والتقدم. ويحق لكم قارئي الكريم التساؤل حول علاقة نظرية اقتصادية سك.

انية، لقضية الأسرة ذات البعد الاجتماعي؟؟

وبيان هذا التساؤل المشروع أنّ نعلم إنجاب الأطفال في المجتمع الغربي هو محور نظرية مالتوس السكانية، وهي بذلك تتقاسم مع المجالات الاجتماعية في دراسة هذا الموضوع، لكن من منطلق خاص ألا وهو المجال الاقتصادي. يقوم الفكر المادي الوضعي الذي كان سائدا في أوروبا نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على التفسير الاقتصادي للتاريخ، وكانت نتيجة تبعات الثورة الصناعية وهزاتها الاجتماعية والفلسفية للبنى التقليدية الغربية، بما فيها بنية الأسرة وطقوس الإنجاب الغربية المتوارثة. وتقوم مرجعية هذا التفسير المادي على اعتبار (الأوضاع الاقتصادية هي التي تنشؤ الأوضاع الاجتماعية تحدد العلاقات بين البشر...وأن له جبرية على الأفكار والمشاعر والسلوك. وإنما كان له كل هذا الأثر في الحياة الأوربية لخلوها من عقيدة عليا ترفع المشاعر وتنظف النفس وتقيم العلاقات الاقتصادية على أساس إنساني)[12].

إنجاب الأطفال هو وظيفة من وظائف الأسرة التقليدية، وذلك تحقيقا لأغراض دينية وأخلاقية نبيلة، كما قال رسول الله ﷺ (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)، وتحقيق أيضا لهدف مادي مشروع أيضا وهو الحفاظ على الجنس البشري والحؤول دون انقراضه في سياق الكوارث الطبيعية والإنسانية التي تعصف بهذا المخلوق في برية الله. كما أن الأطفال سبب من اسباب التماسك الأسري، وحافز طبيعي وعاطفي للأسرة على البقاء ومواجهة التحديات(فالأسرة التي ليس فيها ابناء ليس فيها نشاط وحيوية، اللذان هما لازمان للحياة، ولذلك يسعى الأشخاص الذين ليس لهم ابناء لتبني الأطفال)[13]، لذلك فالارتباط وثيق بين الإنجاب باعتباره وظيفة حيوية للمجتمع والتماسك الأسري، وكل مس بالنظام الطبيعي للإنجاب سيؤثر لا محالة على نظام الأسرة سلبا أو إيجابا.

إذن ما موقف مالتوس من الإنجاب؟ ومهو أثر نظريته على الأسرة؟

الفرع الأول: نظرية مالتوس والنمو السكاني

تقوم نظرية مالتوس على الربط بين النمو الديمغرافي ونمو عوامل الإنتاج الغذائي والتنموي، حيث لاحظ أن ارتفاع نسبة السكان لا يصاحبه ازدياد في الموارد الإنتاجية، مما يعرض البشرية إلى أزمات من قبيل المجاعات والحروب والصراعات على مناطق الإنتاج والموارد المائية.

---

[12]–أحمد فائز، دستور الأسرة في ظلال القرآن، ص:23،–في الهامش.

[13]– علي القائمي، تكوين الأسرة في الإسلام، ص: 185، ترجمة: البيان للترجمة، ط1، 1996، دار النبلاء.

سينشر مالتوس مقالة بعنوان:" Essay on the principle of population "، التي ستحدث ضجة فكرية خلال القرن الثامن عشر تستتبعها ثورات فكرية في مختلف الأنساق المعرفية المتأثرة بأطروحتها من قريب أو من بعيد. روجت هذه المقالة لقضية لاحظها واضعها بأن عدد السكان يتزايد بمتوالية هندسية 1- 2- 4- 8- 16... في حين أن وتيرة إنتاج الطعام والغذاء للعنصر الإنساني لا تزيد إلا بمتوالية عددية 1- 2- 3- 4، مما يخلق فجوة كبيرة بين العدد: الكبير من التزايد السكاني الذي تشهده الأرض، وقضية الإنتاج الغذائي لسد هذه الحاجيات المتزايدة بشكل مخيف. يقول توماس مالتوس(...تزايد الغذاء مرهون بتحسين الأراضي المستغلة. هذا الحسين، مهما كان نوع التربة، لا يمكن أن يتطور دائما بالزيادة، لكن ما يحدث، فهو بالعكس، تناقص تدريجي لهذه الزيادة، بينما السكان، أينما وجدوا ما يقتاتون به، فلن يعرف عددهم جدا، تزايد يصبح في حد ذاته منبعا لتزايد جديدة)[14].

من أجل ذلك دعا مالتوس إلى السيطرة على النمو السكاني، عن طريق إقامة ما سماه بالموانع الإيجابية والموانع السلبية، أي تلكم الموانع التي تحول دون الزيادة الديمغرافية والتي لا يمكن التحكم في اسبابها الغريزية والاجتماعية السياسية والقانونية. ولا حتى عبر تعديل النموذج الثقافي السائد. فلا مفر إذن من فرض نظام الموانع ولو القوة. يقول الدكتور رمزي زكي(وفي الطبعة الثانية من "المقال" التي ظهرت في عام 1803... راح يصوغ الحلول في شكل موانع إيجابية وموانع سلبية. وتتمثل الموانع الإيجابية في تلك العوائق التي من شأنها زيادة معدل الوفيات، كالحروب والمجاعات والأوبئة. أما عن الموانع السلبية، فتتمثل في تلك العوائق التي من شأنها تخفيض معدل المواليد، مثل تأخير سن الزواج لكبح الشهوة الجنسية لدى الإنسان واتخاد السبل والإجراءات التي من شأنها منع الفقراء من الزواج وكثرة الإنجاب)[15] ، كما شدد على عدم مد يد المساعدة للفقراء الذين يشكلون في رأيه عالة على المجتمع، ومساعدتهم تعني تأييدهم على الإنجاب والتكاثر الذي لا مبرر له إلا استهلاك الموارد الاقتصادية، من غير عائد مادي معتبر[16].

وعلى قدر ما لاقته النظرية المالتوسية من الترحيب في الأوسط العلمية الغربية على قدر ما لقيته من المعارضة والانتقاد، خصوصا من لدن رواد الماركسية ك'كارل ماركس" و'فريدريك إنجلز" اللذين اعتبراها (إعتداءا على الإنسانية". يقول الدكتور طافر زهير (وإن كانت تحمل في طياتها بعض الحقائق، إلا أنها شديدة التشاؤم، فقد كان عدد سكان العالم في زمن مالتوس حوالي مليار نسمة، وبعد قرنين أصبح عدد السكان ستة ملايير، بينما حسب «مالتوس" وبناء على متتالية الهندسية السكانية" فمن المفترض أن يضاهي هذا العدد: حاليا 256 مليار

---

[14] -Clerc Denis,1997 ; Déchiffrer les grands auteurs de l'économie et de la sociologie,Volume 2:Les héritiers »,LA DECOUVERTE ET SYROS ? Paris, p:38.

نقلا عن طافر زهير، النظرية السكانية وانعكاساتها على الاقتصاد والمجتمع: دراسة مقارنة، ص: 70، مجلة الباحث الإجتماعي، عدد10 سبتمبر 2010، الجمهورية العربية الجزائرية الشعبية.

[15]–رمزي زكي، المشكلة السكانية: وخرافة المالتوسية الجديدة، ص: 27، سلسلة عالم المعرفة، العدد:84، ديسمبر 1984، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.–يتصرف يسير جدا.

[16]– انظر، طافر زهير، النظرية السكانية وانعكاساتها على الاقتصاد والمجتمع: دراسة مقارنة، ص: 71.

نسمة. وزيادة على ذلك فقد أهمل "مالتوس" قدرة التطور العلمي والتكنولوجيا على ابتكار طرف إنتاجية جديدة تسمح بزيادة المردودية)[17] .

من الناحية البراجماتية، فإن المشكلة ليس كما زعم مالتوس في المفارقة الرقمية بين نسبة النمو السكاني والإنتاج الغذائي، ولكن الإشكالية في تصورنا في النموذج الاستهلاكي المتبع في الحضارة الغربية. فعلى سبيل المثال تستهلك الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ربع الإنتاج الطاقي العالمي(حوالي 80مليون برميل يوميا وبذلك يستهلك 4% من سكان الأرض 25% من إنتاج البترول العالمي)[18]، وأن الطاقة التي تستهلكها مكيفاتها (وهي من الكماليات) سنويا يعادل ما تستهلكه القارة الإفريقية بأكملها !! مما يجعل تكرير مثل هذا النموذج شبه مستحيل وإلا فسيكون ثلثي الطاقة بين يدي عدد قليل من الدول فقط من دول العالم. كما تشير التقارير الدولية إلى غرائب تصريف الفوائض في المنتجات الزراعية والصناعية التي يتم تعريضها للإتلاف حفاظا على سعرها في السوق العالمي وتجنيب المنتجين الإفلاس. فهذا التبذير والإسراف في استهلاك الموارد يحول دون التوزيع العادل لها، مع ما يشكله من الضغط على مصادر الإنتاج الذي يهددها بالفناء جراء الاستنزاف المعجّل مما يعرّض الأجيال القادمة لمخاطر الفقر والمجاعة والعالة.

ومن الناحية المعرفية فقد (تطورت النظرية المالتوسية Malthusianisme على يد بعض المعاصرين كما كليري وغيره الذين رأوا أن سبب نمو هذا التفاوت راجع إلى انخفاض أسعار السلع الغذائية في مقابل ارتفاع أجور العمال، كما أن المالتوسية الجديدة تؤكد على أن السبب في تزايد السكان هو معدلات الوفيات المنخفضة، في مقابل المالتوسية القديمة التي كانت ترى أن تزايد معدلات الولادات بشكل متسارع وفق ما رسمه مالتوس هي السبب في زيادة السكان)[19]. وأيا كانت التطورات التي طرأت على المالتوسية فإنها أبقت على النظرة المادية للإنسان الطبيعي في علاقته مع الموارد الطبيعية، في غياب تام لأي عوامل متجاوزة للمادة. وقد أدى الانتشار الواسع لهذه النظرية وتطبيقها على أرض الواقع إلى حصول مآسي عظيمة وجرائم جسيمة في حق الإنسانية، حيث اتخذت مبررًا للإبادة الجماعية لكثير من الشعوب، وأجبر أبناء بعض العرقيات المضطهدة كالسود والهنود في أمريكا على إجراء التعقيم القسري، وإن اتخذ صورة تعقيم اختياري في ظاهر الأمر، ومثل تجربة التنمية السوفيتية الشيوعية في روسيا التي استحلت بدورها إبادة أعداد كبيرة من البشر (يقال 12 أو 15 مليونًا) بحجة اعتصار التراكم المطلوب للتنمية والتقدم الصناعي. ويقول آلان تشيس في كتابه (تركة مالتوس) (إن 63678 ألف شخص قد جرى تعقيمهم قسراً فيما بين عامي 1907 و1964 في أمريكا في الولايات الثلاثين). بينما يشير الدكتور منير العكش (أستاذ الإنسانيات واللغات الحديثة ومدير البرنامج العربي في جامعة "سفك" في بوسطن في الولايات المتحدة) إلى تعقيم 14 مليون أمريكي بحسب الجرائد الأمريكية الصادرة سنة 1915، حيث سيعقم مئات الآلاف من ضعاف العقول بهدف

---

[17]– المرجع السابق، ص: 71.

[18]– مجلة TIME الأمريكية، عدد يونيو 2011.

[19]–يوسف هريمة، نظرية مالثوس وأزمة الزواج العربي، الحوار المتمدن، العدد:2187، بتاريخ، 2008/02/10.

تحسين النسل..[20]. ولكن كان هناك في الحقيقة مئات الآلاف الأخرى من عمليات التعقيم الأخرى التي كانت طوعية في الظاهر غير إنها قسرية جرت عنوة في واقع الحال. واقتبس آلان تشيس من القاضي الفيدرالي جيرهارد جيل قوله في عام 1974 في خضم قضية ترافعت فيها المحاكم لمصلحة ضحايا التعقيم القسري للفقراء: (على مدى السنوات القليلة الماضية قامت الدولة والهيئات والوكالات الفيدرالية بتعقيم ما بين مائة إلى مائة وخمسين الف شخص سنويا من متدني الدخل الفقراء)[21].

لكن ما هو الأثر المباشر للمالثوسية الحديثة على الأسرة الغربية؟

الفرع الثاني: نظرية مالتوس والأسرة الغربية

لعل أهم ما يمكن تقديمه في جوابا على هذا التساؤل السالف الذكر وهو النتيجة الطبيعية للنظرية المالتوسية، والتي تتجلى في تراجع معدلات النمو الديمغرافي، وتشكل هذه القضية أحد أبرز التحديات أما الأسرة الغربية اليوم. وقد رفع المسؤولون ناقوس الخطر خوفا من تلاشي العرق الأوروبي نتيجة تراجع نسبة الولادات من جهة وارتفاع نسبة الشيخوخة نتيجة تحسن ظروف الرعاية الصحية وارتفاع أمد الحياة. وهذا كما له مخاطر على وجود المجتمع فهو أيضا يفتح مآسي اجتماعية أخرى وتتجلى في سياسة الهجرة التي تتبعها بعض الدول الغربية عامة من أجل تدعيم قاعدتها الديمغرافية[22]. لقد استطاع المالتوسيين والداروينيين الاجتماعيين إقناع الإنسان الغربي بعدم الحاجة التقليدية للأطفال وحلول الخدمات التكنولوجية محل الخدمات الوظيفية الحيوية المرتقبة منهم، وبالتالي رجحان مبدأ الخسارة على مبدإ الربح في التعاطي مع هذا الموضوع، ويضح البروفسور أجنر فوج[23] الخلفية الاجتماعية وراء هذه القضية قائلا(كان إنجاب أطفال في الماضي ميزة لأنهم يمثلون عونا في العمل والمساعدة في شؤون المنزل وهو لا يزالون في سم مبكرة. ولكن تربية وإعالة الأطفال الآن باتت باهضة الكلفة، لنهم بحاجة إلى فترة تعليم طويلة علاوة على عجزهم عن إعالة أنفسهم حتى فترة متأخرة من حياتهم. ويفضل أعلب الاباء والأمهات الآن إنجاب عدد قليل مع ضمان تعليم جيد لأطفالهم، بدلا من إنجاب عدد كبير يضطرون إلى العمل بعد أن اصبح التعليم المفتاح للوصول إلى المناصب المغرية في المجتمع. وتحملت الدولة مسؤولية رعاية كبار

---

[20]–صحيفة San Francisco Daily News بتاريخ 14 أكتوبر/تشرين الأول 1915، افتتاحية بعنوان «من أين نبدأ؟»، نقلا عن الدكتور منير العكش، أمريكا والإبادة الجنسية: 400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض، ص:9، ط1، 2012، رياض الريس للكتب والنشر.

[21]–عن موقع ويكيبيديا على الرابط:http://ar.wikipedia.org/wiki/

وفي كتاب الدكتور منير العكش –الأستاذ الجامعي بأمريكا–، أمريكا والإبادة الجنسية: 400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض، رياض الريس للكتب والنشر. حقائق علمية كثيرة ونادرة وموثقة من دور الوثائق الرسمية فليراجع فإنه مهم.

[22]– لكنها في الآن نفسه تشهدت تنامي العنصرية تجاه الوافدين الجدد، وبالتالي ارتفاع نسبة عدم الاستقرار الإجتماعي، نتيجة فشل سياسة ادماج المهاجرين من جهة ومن جهة أخرى ضعف العاطفة الوطنية لديهم، نظرا لطبيعة النظام الرأسمالي النفعية التي يتم غرسها في مرجعية هؤلاء الوافدين.

[23]–أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة كوبنهاجن.

السن من المواطنين، وانتفت بذلك الحاجة إلى إنجاب أطفال لرعاية الأبوين عند الكبر. والنتيجة ثبات التعداد السكاني ونهاية للتوسعات الإمبريالية في المناطق الحديثة في العالم)[24].

فصار الغرب كما يقول باتريك جيه. بوكانن(**يموت**. لقد توقفت أممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو وبدأوا بالانكماش. ولم يقم منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر الماثل. اليوم هناك سبعة عشر بلدا أوروبيا في جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة، **وهناك أكفان أكثر من المهود)**[25]، هذا القلب للهرم السكاني عرّض ولا يزال الغرب المادي إلى الموت –على حد تعبير بوكانن- وقد بلغت معدلات المواليد في الاتحاد الأوروبي إلى مستويات منخفضة: إذ يبلغ متوسط مواليد المرأة 1.6 طفلا. أعلى معدلات الولادة توجد في جمهورية إيرلندا بـ 16 ولادة لكل ألف شخص سنوياً، ثم في فرنسا بـ 13 ولادة لكل ألف شخص سنوياً. بينما لدى ألمانيا أدنى معدل مواليد في أوروبا بـ 8 ولادات لكل ألف شخص سنوياً[26] وأمام هذا النزيف من الموارد البشرية، سلكت المنظومة مادية منعطفا حاسما كالغريق الذي يتشبث بقشة في بحر مظلم، حيث اتجهت كثير من الحكومات نحو تشجيع الإنجاب وأمام العزوف الممنهج عن الزواج، بدأت مشاكل اجتماعية أخرى تطفو على السطح من مثل ارتفاع نسبة الأمهات العازبات والأطفال غير الشرعيين، (ففي سنة 2002 سجلت أرقام مخيفة عن وضعية الأسرة الأمريكية، إذ إن ما يقرب من ثلث جميع الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية ولدوا خارج مؤسسة الزواج، بمعدل مولود واحد خارج مؤسسة الزواج في كل 35 ثانية. كما سجلت الأرقام تزايد نسبة الأطفال قبل سنة 18 الذين تعرضت أسرهم للتفكك بسبب الطلاق، فأكثر من نصف عدد الأطفال في الولايات المتحدة سينفقون كلا أو جزءا من طفولتهم في أسر مفككة. وسجلت الأرقام أيضا أن ما يقرب من 80 في المائة من الأطفال سيعيشون في المدى البعيد على الفقر بسبب تفكك أسرهم وطلاق الزوجين. واستجابة لهذه التحديات)[27]، وكأنهم داووا الداء بالداء، وبغض النظر عن الأرقام التي هي في متناول كل أحد، فإن التجربة الغربية الباهظة الثمن تؤكد عدم قدرة الإنسان على السيطرة على العالم، وعجزه العميق عن إدراك مصالحه، لأن العقل الذي تم تأليهه في الفكر المادي لم يعد قادرا حتى على استيعاب تركات شطحاته واختياراته، كما قال تعالى(**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى**).

---

[24]–أجنر فوج، الانتخاب الثقافي، ص:167، ترجمة: شوقي جلال، المشروع القومي للثقافة، العدد:609، إشراف: جابر عصفور، ط1، 2005، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر.

ما قاله الدكتور فوج حول نهاية التوسعات الإمبريالية في المناطق الحديثة في العالم فيه نظر، لأن الإمبريالية لم تنته به من توسعاتها، بل لاتزال متسعة على حساب المناطق ذات النفوذ الضعيف وفي نفس الوقت تتمتع بالثروات الطبيعية الكبيرة والمتنوعة. لأن الإمبريالية تبتغي بتوسعاتها اكتساب نفوذ أكبر للسيطرة على العالم سياسية وفرض الأمر الواقع بذلك وتسخر في الآن نفسه لروات الشعوب الضعيفة من أجل المتعة بها وقهرها وإرهاقها أيضا كي لا تقوم لها قائمة قد تزاحمها في المشهد الريادي الكوني التي تتصدره عالميا.

[25]– باتريك جيه. بوكانن، موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، ص:27، ترجمة: محمد محمود التوبة، راجعه: محمد بن حامد الأحمري، ط1،2005، مكتبة العبيكان.

[26]–عن موقع ويكيبيديا على الرابط التالي:

http://ar.wikipedia.org/wiki/

[27]–بلال التليدي، حركة الدفع عن ثقافة العفة في الغرب، مقال نشر في جريدة التجديد، بتاريخ 2009/06/05.

لقد فارق المجتمع المادي كل تجاوز للمادة وأصر على سياسة نفسه بنفسه خارج الوحي فكان أول من اكتوى بناره، وها هو منغمس في ظلماته يترنح قلقا يمنة ويسرة لعله يجد الحل وهيهات هيهات.

لا يجب بحسب التصور الغربي المالتوسي، الإبقاء على الغرب وحيدا في مستنقعات المادية الاجتماعية، بل لابد من إيجاد أوسط أخرى لتصدير المنتجات المأساوية للنظرية المالتوسية، وتجريب عمليات الإبادة وتحطيم النسل عليها. وقد كشفت دوائر الأرشيف الأمريكي عن وثائق "الدولة" التي وعدت الحكومة الأمريكية بإنشائها للهنود الحمر غرب المسيسيبي، وتتضمن وثيقة من 107 صفحات وضعها هنري كيسنجر عام 1974 حين كان مستشار الأمن القومي، والتي وجهها لعدة جهات حكومية وأمنية، مع ملاحظة "أن لا ترفع الأسرية عن هذه الوثيقة إلا من قبل البيت الأبيض" وتشير هذه الوثيقة إلى خطة الرئيس آنذاك جيرالد فورد والتي تخطط لتعقيم نسل 13 دولة في العالم الثالث بينها مصر وذلك في حيز زمني لا يتعدى 25 سنة[28].

لطالما اتُهمت طائفة من العلماء والمثقفين المسلمين بالمبالغة وتبني عقلية المؤامرة، لكن التاريخ الموثق للعلاقات الإسلامية الغربية تثبت بالأدلة والوثائق التي تسرب يوما عن يوم أن موقف أولئك لم يكن خطأ تماما. **فالمنهجية الغربية نحو قطع النمو الديمغرافي للمسلمين(نموذج مصر كما في وثيقة كسنجر) دليل جلي على الخطر الذي تشكله الأسرة المعاصرة المعاصرة –مع مشاكلها الكثيرة- على الوجود الغربي**، بل وفطنوا أن الموارد البشرية الإسلامية سيكون لها دورها لامحالة في معادلة القوى وتعديل موازين السيطرة على العالم، عندما يأتي اليوم الذي سيلقي فيه المسلمون عقبات مظلمة من واقعهم فيقوموا على يد رجل واحد لاسترجاع مكانتهم الريادية على رأس المجتمعات المتقدمة.

تجتهد الحكومات الغربية بجهود حثيثة نحو الحيلولة دون استمرار التكاثر النوعي الطبيعي للأسرة المسلمة، والتي تتخذ من التناسل **قربة إلى الله تعالى وعبادة**. مصداقا لقول النَّبِيِّ ﷺ – عن عبد الله الصُّنَابِحِيّ، ﷺ - (إِنِّي فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ فَلَا تَقْتَتِلُنَّ بَعْدِي)[29] .

إن حث الإسلام على التناسل ليس كما صارت إليه المالتوسية الحديثة، بغية الإبقاء على النموذج أكبر وقت ممكن، وإنما يأتي الترغيب في التناسل بغية الزيادة في عباد الله تعالى الصالحين على وجه البرية من جهة أولى، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ (اللهِ إِنِّي لَأُكْرِهُ نَفْسِي عَلَى الْجِمَاعِ؛ رَجَاءَ أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنِّي نَسَمَةً تُسَبِّحُ اللهَ)[30]، ومن جهة ثانية طلبا للأجر –وهو الأهم-إبتغاء مرضاة الله في تنشئة هذه الذرية الصالحة، التي تدعوا له في حياته وبعد مماته. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ: (إِذَا مَاتَ الْإِنسان انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)[31]، وفي حديث آخر عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

[28]– منير العكش، أمريكا والإبادات الجنسية:400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض، ص:11

[29]–أخرجه أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي في مسنده، ج3/ ص:40، مسند عبد الله الصنابحي، تحت رقم:1454، تحقيق: حسين سليم أسد، ط1، 1984، دار المأمون للتراث، دمشق. والحديث **صححه المحقق**.

[30]– أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ج7/ص:125، باب الرغبة في النكاح، قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن إليها، تحت رقم:13460، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط3، 2003، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[31]–أخرجه مسلم في صحيحه، ج3/ ص: 1255، تحت رقم: 1631، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته.

قَالَ (إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الْعَبْدَ الدَّرَجَةَ فَيَقُولُ: رَبِّ أَنَّى لِي هَذِهِ الدَّرَجَةُ، فَيَقُولُ: بِدُعَاءِ وَلَدِكَ لَكَ)[32]. فهذا الترغيب بالمنفعة الأخروية طريقة فعالة في بلوة الجودة الممكنة في تربية النّسل المسلم على العلم النافع والعمل الصالح، كما تضمن لها الاستمرارية في الزمان ولا مكان، نظرا لأن الأُكُل المرغوب منها لا يطلب بالأساس إلا بعد الوفاة، وأيضا لأنها مرتبطة بالله الذي لا ينفك عن العالم طرفة عين.

ما نهى القرآن الكريم عن التكاثر، وإيراده في سياقات سلبية عامة إلا لأسباب وضحها القرآن الكريم نفسه. فقد قال تعالى(**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**)سورة الحديد:20 وقال عز وجل أيضا(**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حتى زرتم المقابر**)سورة التكاثر1، قال زجاج رحمه الله(قوله عزَّ وجلَّ: (**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، أي شَغَلكم التكاثُر بالأموال والأولاد عن طاعة اللَّهِ**)[33] وعلى هذا التفسير كل المفسرين الأقدمون والمحدثين. وهذه الرؤية للتكاثر الإنساني في الرؤية القرآنية، تتماشى من الأصل العام والكلي للإسلام، الذي يعتبر كل عمل الإنسان ما هو إلا وسيلة لبناء مستقبله الأخروي، وجعل الوسيلة غاية يعطيها أكثر من حقها، ويجعلها حجر عثرة أمام مسيرة الإنسان، وقد تحول دون تحقيقه للغاية العظمى من خلقه هو نفسه ، كما قال تعالى(**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) سورة الذاريات:52.

التكاثر سنة كونية من سنن الله لتعمير الأرض، وإقامة إستخلافية الإنسان فيها، وإن تحقيق هذه الغاية النبيلة، فلا بد من بلوة تصور شامل ومستوعب للأسرة كمؤسسة لتنشئة الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية للنسل الإسلامي المتكاثر. ولعل هذا هو روح الدور الأسرة مقصده الأسمى. لأن تأطير التكاثر أمر اساسي في توجيهه التوجه الصحيح، الأمر الذي يقتضي ارتباط صلاح التكاثر بصلاح الأسرة التي تؤطر في المجتمع والعكس صحيح. من أجل ذلك اعتنى الإسلام بهذه المؤسسة وحصنها بحصانات عقائدية وتشريعية تجميها مما قد يبطل مفعولها ويجول دون ان تؤتي ثمارها المرجوة.

إن الغرب وأمام حتمية الصراع الداروينية التي يومن بها، تجعله دائما في تسابق نحو تفسير الوجود وفقا لنظرية المصالح الاقتصادية. وهو بذلك يسعى جاهدا نحو توفير مصادر الطاقة والمواد الأولية في الكون لصالحه، وسيسخر كل إمكانياته التي ملكها الله إياه من أجل محو كل منافسة له على هذه الموارد الاقتصادية. وليس غريبا ما عبرت عنه "وينونا لادوك" المرشحة الهندية لمنصب نائب رئيس الجمهورية الأمريكية عام 1996 ونائبة رئيس حزب الخضر، حين قالت (ليس الهولوكوست الأمريكي تاريخا مضى وانقضى، إنه واقع يعيشه العالم، وإنه خطر يهدد مستقبل الإنسانية بمصير الهنود الحمر)[34]. بل عن إسقاط القنبلتين النوويتين على **هيروشيما وناكازاكي** ليعد مثال تطبيقيا مروعا على هذا الهولوكوست الغربي المادي الظالم وإعمالا للمالثوسية والداروينية المناقضة لأي وجود آخر سوى الوجود الغربي الغاشم. لقد مات في الحرب العالمية الأولى 9 ملايين شخص في ميادين القتال، وعدد أكبر من

---

[32]–أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ج7/ص:125، باب الرغبة في النكاح، قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن إليها، تحت رقم:13459.

[33]–الزجاج، ابو إسحاق ، معاني القرآن وإعرابه، ج5/ص:357، ط1، 1408هـ/1988م، عالم الكتب، بيروت.

[34]– منير العكش، أمريكا والإبادات الجنسية:400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض، ص:9.

هذا في المجاعات والأوبئة التي صاحبتها، بالإضافة إلى واحد وعشرين مليون جريح، وخسائر مالية تقدر بحوالي 337 مليار دولار أمريكي. وفي الحرب العالمية الثانية، توفي ما يقدر ب50مليون شخص، ما نسبته 2.5%من ساكن العالم آنذاك(1948). أليست هذه الخسارة البشرية هي عين النظرية المالتوسية والداروينة؟[35] ألست إبادة هذه الملايين من الأرواح كان سببه إرادة القوة-على حد تعبير نتشه- والسيطرة على الموارد الاقتصادية، وابتغاء الريادة السياسية على حساب الفتك بالإنسانية وتدمير العالم؟[36]

إذا لم يتنبه العالم الإسلامي لواقع المخططات الأممية، الرامية إلى تفقيره من قوته البشرية وإضعاف إمكانياته التناسلية مع ما يصاحب هذه المخططات من أغلفة سكرية خادعة من مثل تنظيم النسل وترشيد الولادات، وغيرها من الشعارات الخداعة، سيجد نفسه في مستنقع وهاوية اجتماعية واقتصادية وسياسية سحيقة، لن يخرج منها مادام في تباعد مستمر-كما هو واقع الحال مع كامل الأسف- مع مراد الله تعالى منه، وهو الإستخلاف في الأرض وعمارتها بما يصلحها، كيف لا وأمة الإسلام قد كان قدرها أن تون خير امة أخرجت للناس، وليس هذا من قبيل المجاملات السياسية بل هو تكليف رباني شرعي لها أن تقوم بدورها في إصلاح نفسها أولا ثم الانقلاب إلى الناس ودعوتهم إلى ما يصلح خالهم ويخرجهم من حالة القلق والحيرة التي يعيشون أتونها دون أن يجدوا لهم مصرفا. وهذا يقتضي من الأمة أن تشمر على سواعد الجد وأن تقدم التضحيات اللازمة وتقيم الأسباب الكونية لبناء الحضارة النافعة المستوعبة لمصالح الدنيا والآخرة.

---

[35]–يقول الدكتور رمزي زكي(...هكذا تحدث مالتوس. ومن خلال حديثه نستطيع القول، إن المجتمع البشري بهذا الشكل ليس إلا صراعا، الحياة فيه تكتسب لمن هو أصلح، وليست الثروة والملكية إلا مكافأة للبارعين في هذا الصراع. والمالتوسية بهذا المعنى كانت تطبق آنذاك مكتشفات شارلس دارون على الحياة الاجتماعية. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن دارون كان شديد الإعجاب ومن المتحمسين لنظرية مالتوس، لأنه رأى فيها تأكيدا لنظرية النشوء والارتقاء في مجال المجتمع البشري). المشكلة السكانية، ص:27.

[3636]– انظر جارد بامونذ، الانهيار : كيف تحقق المجتمعات الإخفاق أو النجاح؟ (الجزء الثالث: مجتمعات معاصرة، الفصل العاشر: *مالتوس في إفريقية: الإبادة الجماعية في رواندة*) ص:427، ترجمة: مروان سعد الدّين، ط1، 2001، مكتبة العبيكان للنشر–فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية.

خاتمة

هكذا يتبين لنا عمق التخبط والتيه الذي يعانيه الإنسان الغربي. الذي بات معزولا وسط نموذجه الفرداني الحداثوي. وهو بذلك يؤكد على فقدانه للتوجيه السديد والمعصوم من أهواء البشر ونزعاتهم وعواطفهم. كما تؤكد تلكم التجربة الغربية الفريدة على عجز الانسان عن التشريع لنفسه، وأن التشريع الالهي هو القادر على ادراك الأمور على حقيقتها والاحاطة بمصالح العباد في العاجل والاجل. وأن أي تدويل أو عولمة لهذا النموذج المتداعي داخليا سيكون له لا محالة تبعات مدمرة على مجتمعاتنا العربية الاسلامية. إننا في الواقع أمام تحدي الأصالة والمعاصرة. وسؤال الهوية الأسرية الذي بات يطرح في عالمنا العربي الاسلامي بحدة. كيف يمكننا الاستفادة من التجربة الحداثية دون الخروج عن الطابع الأصيل والمعصوم لنموذجنا الأسري المستمد من نصوص الوحي الالهي المتعالي؟ وكيف يمكننا التعامل مع تداعيات المرحلة الانتقالية التي تعانيها السرة العربية عموما؟ وهل هناك أصلا امكانية المزاوجة بين النموذجين الغربي والاسلام؟ أم أننا لابد من الاختيار في اطار الأحادية القطبية النموذجية؟ كلها اسئلة راهنة، وما أكثر ما أنتج في الجواب عليها، لكن يبقى السؤال الأساسي عن اي مشروع يجب ان نصدر؟ وفي نظري فأي استراتيجية أسرية لابد أن تبلور لنفسها استراتيجية مهيكلة اجتماعيا ومعرفيا تصوغ من خلالها القوانين والتشريعات التي يجب أن لا تحيد عنها مهما كلفها الأمر. والله أعلم

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع باللغة العربية

1. القرآن الكريم
2. أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي في مسنده، مسند عبد الله الصنابحي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط1، 1984، دار المأمون للتراث، دمشق.
3. أجنر فوج، الانتخاب الثقافي، ترجمة: شوقي جلال، المشروع القومي للثقافة، العدد:609، إشراف: جابر عصفور، ط1، 2005، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر.
4. أحمد فائز، دستور الأسرة في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، ط6، 1996.
5. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب.
6. ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، سلسلة كتب جائزة نوبل، الدار القومية للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
7. باتريك جيه. بوكانن، موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، راجعه: محمد بن حامد الأحمري، ط1،2005، مكتبة العبيكان.
8. باقر شريف القرشي، نظام الأسرة في الإسلام، ط1، 1988، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.
9. بلال التليدي، حركة الدفع عن ثقافة العفة في الغرب، مقال نشر في جريدة التجديد، بتاريخ 2009/06/05.
10. البيهقي في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن إليها.
11. البيهقي في السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط3، 2003، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
12. جارد باموند، الانهيار : كيف تحقق المجتمعات الإخفاق أو النجاح؟ (الجزء الثالث: مجتمعات معاصرة، الفصل العاشر: مالتوس في إفريقية: الإبادة الجماعية في رواندة) ترجمة: مروان سعد الدّين، ط1، 2001، مكتبة العبيكان للنشر فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية.
13. رمزي زكي، المشكلة السكانية: وخرافة المالتوسية الجديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد:84، ديسمبر 1984، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
14. الزجاج، ابو إسحاق ، معاني القرآن وإعرابه، ط1، 1408هـ/1988م، عالم الكتب، بيروت.
15. طه عبد الحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط1،2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
16.
17. علي القائمي، تكوين الأسرة في الإسلام، ترجمة: البيان للترجمة، ط1، 1996، دار النبلاء.

18. محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، الطبعة التاسعة، 2001.
19. مسلم في صحيحه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
20. منير العكش، أمريكا والإبادات الجنسية:400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض ط1، 2012، رياض الريس للكتب والنشر.
21. نهى قاطرجي، القيم الغربية واثرها على كيان الأسرة، ، مقال من التقرير السنوي الاستراتيجي الثامن، 1434هـ، لمجلة البيان السعودية في موضوع: الأمة في معركة القيم والمفاهيم، بالتعاون مع المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة للعام 2011.
22. نوار الحسن غولي، هل النساء العربيات معنيات بالحركة النسوية؟ ترجمة: منذر محمود محمد، دون معلومات.
23. نيما ناغيبي، الدراسات النسائية/الجندر، ترجمة هالة كمال، موسوعة النساء والثقافات الإسلامية، دار بريلبوسطن، 2003، تمت الترجمة بتعاون مع مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، 2006.
24. يوسف هريمة، نظرية مالثوس وأزمة الزواج العربي، الحوار المتمدن، العدد:2187، بتاريخ، 2008/02/10.

ثانيا: المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

Clerc Denis,1997 ; Déchiffrer les grands auteurs de l'économie et de la sociologie,Volume 2:Les héritiers »,LA DECOUVERTE ET SYROS ? Paris.

المجلات والجرائد

1. مجلة TIME الأمريكية، عدد يونيو 2011.
2. مجلة الباحث الإجتماعي، عدد10 سبتمبر 2010، الجمهورية العربية الجزائرية الشعبية.